الفصل الأول

رحلات جغرافية

١

كتب الجغرافيا

اهتم العرب بوصف البلاد التى دخلت مع فتوحهم فى حوزتهم ، فتحدثوا عنها فى كتاباتهم التاريخية الأولى ، ودعاهم ما فى القرآن الكريم من إشارات إلى الأمم السابقة أن يطلعوا على ما عند أهل الكتب السماوية قبلهم من أخبارها ، وضمنوا ما عرفوا من ذلك تفاسيرهم لآى الذكر الحكيم . وبمجرد أن أخذوا فى العصر العباسى ينقلون ما عند الأجانب من معارف وعلوم نقلوا ما عرفه الفرس والهنود والإغريق عن العالم القديم ، وخاصة من الوجهة الجغرافية ، وكان فيما نقلوا جغرافية بطليموس .

ولا نصل إلى عصر المأمون بن هرون الرشيد حتى يبدأ تأسيس علم الجغرافية العربية ، فتوضع خريطة للعالم على أساس خريطة بطليموس . ثم يأخذ العرب فى التأليف الجغرافى ، فيصفون دولتهم الكبيرة التى امتدت من الهند وحدود الصين إلى أسبانيا وجبال البرانس ، ومن القوقاز وآسيا الصغرى إلى السودان ومجاهل إفريقية ، كما يصفون الإمبراطوريات والشعوب المجاورة لهم ، وأمدهم ملاحوهم بمعارف كثيرة عن أمم المحيط الهندى وجزائره .

واتبع جغرافيوهم طريقة ممتعة فى وصف عالمهم والعوالم المحيطة بهم ، إذ عنوا بالحديث عن عادات الأمم والشعوب وطباعها وما بديارها من آثار

وعجائب وقصّوا ما عندها من أساطير وخُرافات . وبذلك أصبحت كتبهم الجغرافية كتباً أدبية ، تعتمد على المشاهدة وحكاية ما رآه الجغرافى تحت عينه وسمعه بأذنه ، وهى من هذه الناحية أقرب إلى أن تكون كتب رحلات منها إلى أن تكون كتباً جغرافية بالمعنى الذى نفهمه اليوم .

وكانت الدولة تحتاج من جهة الخراج والإدارة إلى معرفة المسالك فى البر لتنظيم البريد والاتصال بالبلاد المختلفة ، فعنى الجغرافيون بهذا الجانب ، وزاد فى عنايتهم به حاجة الحُجاج إلى معرفة محطات القوافل فى طريقهم إلى مكة . ومن هنا سَمَّوا كثيراً من كتبهم باسم «المسالك والممالك» ، ومن هنا أيضاً كانت كتبهم شعبية ، فهى كتب تقدَّم إلى الشعب لا إلى الدولة والطبقة المثقفة الممتازة فحسب ، ولذلك يغلب عليها الطابع القصصى ، ونجد لذة فى قراءتها ، إذ تنتقل بين أخبار جغرافية وتاريخية وقصصية ومشاهدات يرويها الجغرافيون عن أنفسهم أو عن الرحّالين وما أبصروا فى الممالك القريبة والبعيدة . وسنقف وقفات قصيرة عند طائفة من هذه الكتب الطريفة .

٢

المسالك والممالك لابن حَوْقل

ابن حوقل من جغرافيي القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) نشأ فى بغداد ، وقرأ ما سبقه وعاصره من كتب جغرافية ، وشغف بهذا العلم ، فصمم على أن يضع فيه كتاباً لا يأخذه من أفواه الناس ولا مما قرأه ، وإنما يأخذه عن عينه ومشاهداته فى العالم الإسلامى ، فطاف بهذا العالم ثلاثين سنة ، ثم وضع كتابه . وتصادف أن تشيَّع ، وكانت مصر يحكمها الفاطميون ، فتحول

داعياً لهم ، واتجه بكتابه « المسالك والممالك» هذه الوجهة السياسية . ويتضح ذلك فى حديثه عن البلاد التى كان يهم الفاطميين أن يستولوا عليها مثل الأندلس وصقلية ، ويجرى حديثه عن الأولى على هذا النحو :

« الأندلس جزيرة كبيرة فيها عامر وغامر ، وطولها دون الشهر فى عرض نيف وعشرين مرحلة ، ويغلب عليها المياه الجارية والشجر والثمر ، والرخص والسعة فى الأحوال من الرقيق الفاخر والخصب الظاهر إلى أسباب التملك الفاشية فى أكثرهم ، ولما هُمْ به من رغد العيش وسعته وكثرته ، يملك ذلك أهل مهنهم وأرباب صنائعهم ، لقلة مؤنهم وصلاح بلادهم ، ويسار ملكهم وقلة شغله وسقوط تكلفه بشىء يحذره وحال يخافه ، إذ لا خوف عليه ولا رقبة لأحد من أهل جزيرته ، مع عظم مرافقه وجباياته ووفور خزائنه وأمواله . ومما يدل بالقليل منه على كثيره أن سكة دار ضربه على الدنانير والدراهم ضريبتها فى كل سنة مائتا ألف دينار . . . هذا إلى صدقات البلد وجباياته وخراجاته وأعشاره وضماناته ومراصده والأموال المرسومة على المراكب الواردة والصادرة والجوالى والرسوم على بيوع الأسواق . ومن أعاجيب أحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هى فى يده مع صغر أحلام أهلها وضعة نفوسهم ونقص عقولهم وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ولقاء الرجال ومراس الأنداد والأبطال » .

وواضح أنه يشير إلى غناها وخصب أراضيها وعظيم جباياتها ، كما يشير إلى ضعفها الحربى وأن من السهل أن يفتحها الفاطميون ، فتتحول هذه الديار إلى ملكهم وتلك الأموال إلى خزائنهم . وكان يحكم الأندلس إذ ذاك دولة بنى أمية التى أسسها بها عبد الرحمن الداخل ، وفى عاصمتهم قرطبة يقول :

« وأعظم مدينة بالأندلس قرطبة ، وليس بجميع المغرب عندى لها شبيه فى كثرة أهل وسعة رقعة وفسحة أسواق ونظافة محال وعمارة مساجد وكثرة

حمامات وفنادق . . . وهى مدينة حصينة ذات سور من حجارة ومحال حسنة ... ولها بابان مُشْرَعان فى نفس السور إلى الطريق الآخذ على الوادى من الرصافة ، والرصافة مساكن أعالى البلد ، متصلة بأسافله من ربَضه ، مشتبكة أبنيتها محيطة بها مستديرة عليها من شرقها وشمالها وغربها . . . والأسواق والبيوع والخانات والحمامات ومساكن العامة بربَضها ، ومسجد جامعها جليل والحَبْس منه قريب . وقرطبة هذه بائنة بنفسها عن مساكن أرباضها ظاهرة ، ودرْتُ بها فى غير يوم فى قدر ساعة . . . وليس لها نظير بالمغرب فخامة حال وسعة تملك وابتذال لجيد الثياب والكُسَى وفراهة الكراع (الخيل) وكثرة الحلى ، وإن لم يكن لها فى عيون كثير من الناس حسن بارع ، فليس لجيوشهم حلاوة فى العين ولا علم بآيين (قوانين) الفروسية وقوانينها ولا بالشجاعة وطرقها . وأكثر ظفر جيوشهم فى القتال بالكيد . ومما يدل على ذلك أنى لم أر قط بها أحداً أجرَى على فرس فاره أو برذون هجين ورجلاه فى الركب ، ولا يستطيعون ذلك ولا بلغنى عن أحدهم ، وكل ذلك لخوفهم من السقوط ، إلى فشل فيهم عند لقائهم . . . »

وقد عاد ابن حوقل إلى رمى الأندلسيين بالضعف فى الحرب ونقص استعدادهم فيها ليزين للفاطميين فتح هذه البلاد . ولا يهمنا ذلك الآن ، إنما تهمنا طريقته فى الوصف الجغرافى ، فهو يقف ليعطينا معلومات طريفة عن البلدان وهى معلومات رحالة يصف ما يشاهده وصفاً دقيقاً ، ينقل إلينا فيه البلدة التى يصفها بكل ما فيها من أبنية وأسواق وحمامات ومساجد ومطاعم وملابس وعادات . ومما يقوله فى « بلرم » عاصمة صقلية وكان من بها من المسلمين لا يدينون بالولاء للفاطميين ، فذمهم ، وشنع عليهم :

« أكثر مياه البلد من الآبار ، وهى ثقيلة غير مروية ، وإنما صرفهم إلى شربها رغبةٌ عن شرب الماء الجارى العذب (الذى يجرى حول بلدتهم)

قلةُ مروءاتهم وكثرة أكلهم البصل وفساد حواسهم لكثرة تغذيهم بالنبيء منه، وما فيهم من لا يأكله فى كل يوم . . . وفيها أزيد من ثلاثمائة معلم يؤدِّبون الصبيان . وهم (أهل بلرم) يرون أنهم أفضلهم وأجلهم ، وأنهم أهل الله وهم شهودهم وأمناؤهم ، هذا على ما اشتهر عن المعلمين من نقص عقولهم . . . وإنما لجئوا إلى هذه الصناعة هرباً عن الجهاد ونكولا عن الحرب . . . »

وبهذه الطريقة أطلعنا ابن حوقل على حياة أهل البلدان التى وصفها بجانب ما تحدث عنه من المسالك ، فكتابه ليس كتاب سرْد جغرافى ، وإنما هو رحلة كبيرة فى العالم الإسلامى ، رحلة جغرافية بديعة .

٣

أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم للمقدسى

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر ، من بيت المقدس بفلسطين ، وإليه ينسب ، وهو فى رأى بعض المستشرقين أعظم الجغرافيين عند العرب فى جميع عصورهم . عاش فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وجذبته الكتابة فى الجغرافيا ، فضرب فى العالم الإسلامى وتنقل فى ربوعه ، ثم أخذ يدون هذا الكتاب « أحسن التقاسيم » مصوراً أحواله الجغرافية والعمرانية ، مهتماً اهتماماً شديداً بالحديث عن « اختلاف أهل البلدان (الإسلامية) فى كلامهم وأصواتهم وألسنتهم وألوانهم ومذاهبهم ومكاييلهم وأوزانهم ونقودهم وصفة طعامهم وشرابهم وثمارهم ومياههم ومعرفة مفاخرهم وعيوبهم وما يحمل من عندهم وإليهم . . . ومعادن السعة والخصب ، ومواضع الضيق والجدب ، والمشاهد والمراصد والخصائص والرسوم (الصفات والطبائع) والممالك والحدود » . يقول :

« ما تمّ لى جمع الكتاب إلا بعد جولاتى فى البلدان ودخولى أقاليم الإسلام ولقائى العلماء وخدمتى الملوك ومجالستى القضاة ودرسى على الفقهاء ، واختلافى إلى الأدباء والقراء وكتبة الحديث ومخالطة الزهاد والمتصوفين وحضور مجالس القصّاص والمذكرين ، مع لزوم التجارة فى كل بلد ، والمعاشرة مع كل أحد ، والتفطن فى هذه الأسباب بفهم قوى حتى عرفتها ومساحة الأقاليم بالفراسخ حتى أتقنتها ، ودورانى على التخوم حتى حرّرتها ، وتنقلى إلى الأجناد حتى عرفتها ، وتفتيشى عن المذاهب حتى علمتها ، وتفطنى فى الألسن والألوان حتى رتبتها ، وتدبرى فى الكُوَر (المديريات) حتى فصّلتها ، وبحثى عن الأخرجة (الضرائب) حتى أحصيتها . مع ذوق الهواء ، ووزن الماء ، وشدة العناء » .

وهذا الكلام الذى نقلناه عن مقدمته لكتابه يدل أبلغ الدلالة على مدى جهده فى الدراسة ، فقد عانى فى جمع مادة كتابه ، وتناول فيه أحوال كل بلدة وأهلها من طبائع وعادات حتى فى لغاتهم . والكتاب بذلك يعد طُرْفة حقيقية ففيه مادة غنية عن سكان كل بلدة وما يمتازون به فى طعامهم وثيابهم وعبادتهم ونُسكهم ، وهو يتحول إلى ما يشبه شريطاً سينمائيا ، فيعرض علينا سكان العالم الإسلامى بكل خصائصهم وصفاتهم ، ولخص هذه الصفات والخصائص فى أوائل كتابه ، فقال :

« أظرف الأقاليم العراق ، وهو أخف على القلب وأحدّ للذهن ، وبه تكون النفس أطيب والخاطر أدق . وأجلها وأوسعها فواكه وأكثرها علماء وأجلّة المشرقُ (الدولة السامانية فى خراسان) وأكثرها صوفاً وقزّاً الديلم (جرجان وطبرستان) وأجودها ألباناً وأعسالا وألذها أخباراً وأمكنها زعفراناً الجبالُ (أعالى إيران) وأكثرها ثماراً وأرخصها أسعاراً ولحوماً وأثقلها قوماً الرحاب ، وأسفلها قوماً وأشرهم أصلا وفصلا خوزستان ، وأحلاها تمُوراً وأوطأها قوماً كرْمان ، وأكثرها أرزازاً ومسكاً وكافوراً السند ، وأكيسها قوماً وتجاراً وأكثرها فسقاً فارس ،

وأشدها حرّا وقحطاً ونخيلا جزيرة العرب ، وأكثرها بركات وصالحين وزهاداً مشاهد الشام ، وأكثرها عباداً وقراءً وأموالا ومتجراً وخصائص وحبوباً مصر . . وأجفاها وأثقلها . . . وأكثرها مدناً وأوسعها أرضاً المغرب »

وظل على هذا النحو يعدد أوصاف كل بلدة ، ثم أخذ فى ذكر أقاليم العالم الإسلامى ، وبدأ بجزيرة العرب ، فتكلم عن مسالكها وبلدانها بلداً بلداً ، ومما قاله فى مكة :

« مكة هى مصرُ هذا الإقليم قد خُطَّت حول الكعبة فى شِعْب واد ... بناؤها حجارة سُود مُلْس وبيض أيضاً ، وعلوّها الآجر ، كثيرة الأجنحة من خشب الساج ، وهى طبقات مبيضة نظيفة ، حارة فى الصيف إلا أن ليلها طيب ، قد رفع الله عنهم مئونة الدفء ، وأراحهم من كلف الاصطلاء . وكلُّ مانزل عن المسجد الحرام يسمونه المَسْفَلة ، وما ارتفع عنه المَعْلاة ، وعرضها سعة الوادى ، والمسجد فى ثلثى البلد إلى المَسْفلة ، والكعبة فى وسطه ، وفيه طول . وباب الكعبة مرتفع عن الأرض نحو قامة ، عليه مصراعان ملبَّسان بصفائح الفضة ، قد طليت بالذهب قبال المشرق . طول المسجد ثلاثمائة ذراع ، وعرضه ثلاثمائة وخمسة عشر ذراعاً ، وطول الكعبة أربعة وعشرون ذراعاً وشبراً فى ثلاثة وعشرين ذراعاً وشبراً » .

ويُفيض فى الحديث عن المسجد وخطَط مكة والمشاعر المختلفة من مثل منى والمزدلفة والطرق المفضية إليها من جميع الآفاق . ويتحدث عن بلاد العرب غير مكة ، ثم يعقد فصلا على عادته فى كل إقليم يتكلم فيه عن خصائص هذه البلاد فى جوها وفى خصبها وجدبها وفى المذاهب الدينية المنتشرة بها والتجارات التى تشيع فيها . ويتحدث عن رسوم القوم فى ثيابهم وطباعهم وأخلاقهم وكيف يحتفلون برمضان وأعيادهم ، وهو فى كل ذلك يأتى بالطريف من الخبر . وإذا استوفى الحديث عن بلاد العرب خرج إلى إقليم العراق فإقليم الشام ،

فإقليم مصر ، فإقليم المغرب ، ثم انتقل إلى أقاليم العجم ، وهو فى كل إقليم يتحدث عن بلاده بلداً بلداً وطباع أهله ومطاعمهم وملابسهم وتجاراتهم وحرفهم وما يؤدون من الضرائب ، ويفرد فصولا واسعة لما يراه من مشاهد وآثار ، ومما جاء فيه عن عجائب إقليم مصر :

« فيه عجائب منها الهرمان اللذان هما أحد عجائب الدنيا من حجارة ، شبه عِماريتَين (هودجين) ارتفاع كل واحدة أربعمائة ذراع فى عرض مثلها ، قد ملئت بكتابة يونانية (كذا) وفى داخلهما طريقان إلى أعلاهما ، وطريق تحت الأرض . . . وسمعت فيهما أشياء مختلفة ، فمنهم من قال هما طلسمان ، ومنهم من قال كانتا أهراء (مخازن) يوسف ، وقيل بل كانت قبورهم . . . ويقال مكتوب عليهما : إنى بنيتهما فمن كان يدعى قوة فى ملكه فليهدمهما ، فإن الهدم أيسر من البناء ، فأراد بعض الملوك هدمهما ، فإذا خراج مصر لا يقوم بهدمهما ، فتركهما . وهما أملسان . . . يرَيان من مسيرة يومين وثلث لا يصعد فوقهما إلا كل شاطر ، وحولهما أمثالهما عدة صغار ، وهذا يدل على أنها مقابر . . . وبعين شمس شبه منارتين طويلتين ، قطعة واحدة ، على رأسهما شبه حربة ، تسميان المسلتَّين . . . وقرأت فى كتب الطلسمات أنهما طلسمان للمَاسيح . وبالإسكندرية منارة قد أرسى أساسها فى شبه جزيرة صغيرة يُدْخَل إليها فى طريق ضيقة بالصخر محكمة . . . والمنارة فى جزيرة ، وفيها ثلاثمائة بيت يصعد إلى بعضها الفارس بفرسه ، وإلى كلها بدليل . . . ويقال إنه كان فيها مرآة يُرَى فيها كل مركب أقلع من سواحل البحر كلها . . . »

وبتلك الصورة تختلط فى هذا الكتاب الجغرافيا بالأخبار وعجائب الآثار وأحوال الناس والعمران ، وكانت مخيلة المقدسى من المخيلات اللاقطة التى تلتقط كل ما تشاهده وتسجله مع التحقيق والتدقيق فى الرؤية وما ينقله عن الأفواه والشفاه .

٤

نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق للإدريسى

الإدريسى أبو عبد الله محمد أكبر جغرافيي بلاد المغرب والأندلس ، وهو من سلالة الرسول عليه السلام ومن بيت بنى حمود الذين تملكوا بعض بلدان الأندلس فى القرن الحادى عشر ، ولد فى سبتة سنة ٤٩٣هـ / ١٠٩٩ م وتعلم فى قرطبة ، ثم رحل فى البلاد : فى الأندلس والمغرب ومصر والشام وآسيا الصغرى ، وانتهى به المطاف إلى صقلية ، وكان قد احتلها النورمان وأزالوا منها حكم المسلمين ، إلا أنهم عاملوهم بالحسنى ، واشتهر بذلك أميرهم روجر الثانى الذى كان يعجب بالعرب وما أتقنوا من علوم ومعارف . واتصل الإدريسى بهذا الأمير فأعجب كل منهما بصاحبه ، وقد عرف فيه روجر قدرته البارعة على رسم الخرائط ومهارته فى علم الجغرافية ، فطلب إليه أن يؤلف فيها كتاباً له ، فلم يهجم على التأليف مباشرة ، بل أنفذ طائفة من الرحالة إلى بلدان متفرقة ليأتوه بالمعلومات ، فكتبوا له تقارير بما شاهدوه ، أضافها إلى ما شاهده بنفسه فى البلدان ، وجمع أكثر ما كُتب فى هذا العلم ، واتخذ من كل ذلك مادة لتأليف كتابه الذى سماه « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » كما يسمى باسم كتاب روجر لأنه ألف من أجله ، وقد نقل إلى اللاتينية موجز له فى القرن السادس عشر . ومنذ هذا التاريخ يهتم بهذا الكتاب المستشرقون ، إذ يرون فى مؤلفه « إسطرابون » العرب وأكبر جغرافييهم على الإطلاق . ولم ينشر الكتاب إلى اليوم ، إنما نشرت قطع منه ، وفى دار الكتب المصرية منه نسخة مخطوطة .

وزوّد الإدريسى كتابه بإحدى وسبعين مصوّرًا ، ولذلك يعد أعظم مصنفات العصور الوسطى فى الجغرافية ، وهو يتبع الطريقة العربية ، طريقة العرض الجغرافى القائم على المشاهدة ، وتفصيل أحوال الأمم والسكان ، وبيان ما بكل بلدة من عجائب البنيان والآثار . ولا يقف بكتابه عند وصف العالم الإسلامى ، بل يضم إليه وصفاً دقيقاً للعالم المسيحى فى أوربة ، مفيداً من الرحّالة الذين وضعهم روجر تحت إمرته ، وقد أوفدهم إلى بلدان أوربة المختلفة ، ونقلوا إليه كثيرا من المعلومات عن فرنسا وإيطاليا وألمانيا وأواسط أوربة وشرقها . ومن أطرف ما جاء فيه حديثه عن المدن الأندلسية التى زارها من مثل طُلَيْطلة وفيها يقول :

« مدينة طليطلة من طَلَبيرة شرقاً ، وهى مدينة عظيمة القطر ، كثيرة البشَر حصينة الذات ، لها أسوار حسنة ، ولها قصبة فيها حصانة ومنعة . وهى أزلية من بناء العمالقة . وقليلا ما رُئى مثلها إتقاناً وشماخة بنيان . وهى عالية الذرَى ، حسنة البقعة ، زاكية الرقعة . وهى على ضفة النهر الكبير المسمى تاجُه ، ولها قنطرة من عجيب البنيان ، وهى قوس واحدة ، والماء يدخل تحت ذلك القوس كله بعنف وشدة جرْى . ومع آخر القنطرة ناعورة ، ارتفاعها فى الجو تسعون ذراعاً ، وهى تُصعد الماء إلى أعلى القنطرة ، والماء يجرى على ظهرها ، فيدخل المدينة . ومدينة طليطلة كانت فى أيام الروم دار مملكتهم وموضع قصْدهم ، ووجد أهل الإسلام فيها عند افتتاح الأندلس ذخائر كادت تفوق الوصف كثرة ، فمنها أنه وُجد بها سبعون تاجاً من الذهب مرصعة بالدر وأصناف الحجارة الثمينة ، ووجد بها ألف سيف بجوهر ملكى ، ووجد بها من الدر والياقوت أكيال وأوساق (حمول) ووجد بها من أنواع آنية الذهب والفضة ما لا يحيط به تحصيل ، ووجد بها مائدة سليمان بن داود (كذا) وكانت فيما يذكر من زمردة ، وهذه المائدة اليوم فى مدينة رومة !

ولمدينة طليطلة بساتين محدقة بها، وأنهار جارية مخترقة، ودواليب دائرة وجنات يانعة وفواكه عديمة المثال ، لا يحيط بها تكييف ولا تحصيل ، ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة وقلاع منيعة تكنفها . »

وانتهى الإدريسى من تأليف هذا الكتاب سنة ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م وتوفى روجر وخلفه غليوم الأول (١١٥٤ — ١١٦٦ م) وألف له كتاباً آخر فى الجغرافية سماه « روض الأنس ونزهة النفس » أو كتاب « المسالك والممالك» . وقد توفى الإدريسى سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٦ م .

٥

آثار البلاد وأخبار العباد للقزوينى

عاش القزوينى فى القرن السابع الهجرى ، وتوفى سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م واسمه زكريا بن محمد . ويدل لقبه على أنه من إقليم بحر قزوين شمالى إيران . وله كتابان أحدهما هذا الكتاب « آثار البلاد » فى الجغرافيا والثانى « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » فى الفلك والتاريخ الطبيعى . وكتابه الجغرافى من أطرف الكتب الجغرافية عند العرب ، وهو فيه لا يهتم بالمسالك ، إنما يهتم بأحوال البلاد والسكان ، مضيفاً كل ما يستطيع من طرفة نادرة وعجيبة خارقة . وقد قسم الكتاب إلى سبعة أقاليم ، تكلم فى كل إقليم عن بلاده مرتباً لها على حروف المعجم ، وهو لا يقف كما وقف المقدسى عند المملكة الإسلامية ، بل يضم كما ضم الإدريسى ذكر البلدان الأوربية ، ويجمع من هنا وهناك غرائب كثيرة عن العالم فى أوربة وإفريقية وآسيا وبلادها البعيدة مثل الهند والصين ، ومما جاء فيه من عجائب الأخيرة :

« الهيكل المدوّر ، وله سبعة أبواب ، فى داخله قبة عظيمة البنيان عالية السَّمْك، وفى أعلى القبة شبه جوهرة كرأس عجل ، يضيىء منها جميع أقطار الهيكل ، وإن جمعا من الملوك حاولوا أخذ تلك الجوهرة فما تمكنوا من ذلك ، فمن دنا منها قدر عشرة أذرع خَرَّ ميتاً ، وإن حاول أخذها بشىء من الآلات الطوال ، فإذا انتهى إليها انعكست ، وكذلك إن رمى إليها شيئاً ، وإن تعرض أحد لهدم الهيكل مات ، وفى هذا الهيكل بئر واسعة الرأس من أكبِّ عليها وقع فى قعرها ، وعلى رأس البئر شبه طوق ، مكتوب عليه : هذه البئر مخزن الكتب التى هى تاريخ الدنيا وعلوم السماء والأرض وما كان فيها وما يكون ، وفيها خزائن الأرض ، لكن لا يصل إليها إلا من وازن علمه علمنا ، والأرض التى عليها هذا الهيكل أرض حجرية عالية كجبل شامخ لا يرام قلعه ولا يتأتى نقبه . وإذا رأى الناظر إلى ذلك الهيكل والقبة والبئر وحسن بِنْيَتِها مال قلبه إليها وتأسف على فساد شىء منها . ومن عجائب الصين . . . طاحونة يدور حجرها التحتانى ، والفوقانى ساكن ، ويخرج من تحت الحجر دقيق لا نخالة فيه ونخالة لا دقيق فيها ، كل واحد منهما منفرد عن الآخر . وبها قرية عندها غدير فيه ماء ، فى كل سنة يجتمع أهل القرية ويلقون فرساً فى ذلك الغدير ، والناس يقفون على أطرافه كلما أراد الفرس الخروج من الماء منعوه ، وما دام الفرس فى الماء يأتيهم المطر ، فإذا أمطروا قدر كفايتهم وامتلأ الغدير أخرجوا الفرس وذبحوه على قُلَّة جبل وتركوه حتى يأكله الطير ، فإن لم يفعلوا ذلك فى سنة من السنين لم يمطَروا . . . ولأهل الصين يد باسطة فى الصناعات الدقيقة ، ولا يستحسنون شيئاً من صناعات غيرهم ، وأى شىء رأوا أخذوا عليه عيباً ، ويقولون : أهل الدنيا ما عدانا عمى إلا أهل كابل فإنهم عور ، وبالغوا فى تدقيق صَنعة النقوش ، حتى إنهم يصورون الإنسان الضاحك والباكى ، ويفصلون بين ضحك السرور

والحجالة والشماتة ، وإذا أراد ملكهم شيئاً من المتاع يعرضه على أرباب الخبرة ، ولا يتركه فى خزائنه إلا إذا وافقوا على جودته . وحكى أن صانعاً اتخذ ثوباً ديباجاً عليه صورة سنابل وقعت عليها العصافير ، فعرضه الملك على أرباب الخبرة واستحسنوه ، إلا صانعاً واحداً ، قال : العصافير إذا وقعت على السنابل أمالتها ، وهذا المصور عملها قائمة لا ميل فيها ، فصدقه الحاضرون وعجبوا من دقة نظره فى الصنعة . ومن خواص بلاد الصين أنه قلما يُرَى بها ذو عاهة كالأعمى والزَّمن (ذى العاهة) ونحوهما وأن الهرّة لا تلد بها . وقال محمد ابن أبى عبد الله : رأيت بالصين إنساناً يصيح صياح القردة ، وله وبر كوبر القرد ويداه تنالان ساقيه إذا بسطهما قائماً ويكون على الأشجار ، يثب من شجرة إلى شجرة ، وبينهما عشرة أذرع . وبالصين دابة المسك ، وهى دابة تخرج من الماء فى كل سنة فى وقت معلوم ، ويُصْطاد منه شىء كثير ، وهو شديد الشبه بالظباء ، فيذبح ويؤخذ الدم من سرته ، وهو المسك ، ولا رائحة له هناك حتى يحمل إلى غيرها من الأماكن . . »

وواضح أن فى الحديث عن هذه العجائب بعض المبالغات ، مما يجعل طائفة منها أقرب إلى الخرافة ، ولكنها مع ذلك لها طرافتها ، إذ أراد بها إلى القصص ، ونحن لا نقرأ فيها حتى نذكر كتاب ألف ليلة وليلة وما به من عجائب عن عالمى الجن والإنس . وكأن الجغرافيين أرادوا إرضاء حاسة الخيال عند قرائهم ، وكلما كان الإقليم أبعد تمادوا فى المبالغة ، حتى ليروون أن للنساء جزيرة خاصة بهن ، ويقول فيها القزوينى :

« فى بحر الصين جزيرة فيها نساء لا رجال معهن أصلا ، وإنهن يلقحن من الريح وَيلدْنَ النساء مثلهن ، وقيل إنهن يلقحن من ثمرة شجرة عندهن يأكلن منها ، فيلقحن ويلدن نساء . حكى بعض التجار أن الريح ألقته إلى هذه الجزيرة ، قال : فرأيت نساء لا رجال معهن ، ورأيت الذهب فى

هذه الجزيرة مثل التراب ، ورأيت من الذهب قضباناً كالحيزران ! فهممن بقتلى ، فحمتنى امرأة منهن ، وحملتنى على لوح وسيَّبنى فى البحر ، فألقتنى الريح إلى بلاد الصين ، فأخبرت صاحب الصين بحال الجزيرة وما فيها من الذهب ، فبعث من يأتيه بخبرها ، فذهبوا ثلاث سنين وما وقعوا بها ، فرجعوا » .

وبجانب هذه الأقاصيص نجده يقص عن البلاد الإسلامية كثيراً من الحكايات عن الزهاد والصالحين ، كما يتعرض لكثير من أخبار التاريخ والملوك السابقين . ومن طريف ما يرويه عن بَلْخ وهى إحدى بلاد خراسان حكايات عن زاهدها إبراهيم بن أدهم المتصوف المشهور ، يقول :

« ينسب إليها من المشاهير إبراهيم بن أدهم رحمه الله ، كان من ملوك بلخ ، وكان سبب تركه الدنيا أنه كان فى بعض متصيّداته يركض خلف الصيد ليرميه ، فالتفت الصيد إليه ، وقال : لغير هذا خلقت يا إبراهيم ؟ فرجع ومر على بعض رُعاته ونزل عن دابته وخلع ثيابه ، وأعطاها للراعى ، ولبس ثياب الراعى واختار الزهد . وحُكى أنه ركب سفينته فى بعض أسفاره ، فلما توغل فى البحر طالبه الملاح بالأجرة وألحّ عليه ، فقال له إبراهيم : أخرجنى إلى هذه الجزيرة حتى أؤدى أجرتك فأخرجه إليها وذهب معه ، فصلى إبراهيم ركعتين ، وقال : إلهى يطلب أجرة السفينة ، فسمع قائلا يقول : خذ يا إبراهيم ، فمدّ يده نحو السماء وأخذ دينارين دفعهما إلى الملاّح ، وقال : لا تذكر هذا لأحد ، ورجعا إلى السفينة ، فهبت ريح عاصف واضطربت السفينة وأشرفت على الهلاك ، فقال الملاح : اذهبوا إلى هذا الشيخ ليدعو الله ، فذهب القوم إليه ، وهو مشغول بنفسه فى زاوية ، فقالوا إن السفينة أشرفت على الهلاك ، ادْعُ الله لعله يرحمنا ، فنظر إبراهيم بموق عينيه نحو السماء وقال : يا مرسل الرياح مُنّ علينا بالنجاح ، فسكنت الريح فى الحال . وحكى أنه مرّ به بعض رُعاته من بلخ ، فرآه جالساً على طرف ماء يرقّع

ثوبه ، فجلس إليه يعيره بترك الملك واختيار الفقر ، فرمى إبراهيم إبرته فى الماء ، وقال : رُدّوا إلىّ إبرتى ، فأخرج سمك كثير من الماء رءوسه ، وفى فم كل واحدة إبرة من الذهب ! فقال : لست أريد غير إبرتى ، فأخرجت واحدة رأسها بإبرته ، فقال للرجل : أى الملكين خير هذا أم ذاك . . .

وحكى أن إبراهيم كان ناطوراً (حارساً) فى بستان بأجرة ، فإذا هو نائم وحَيَّة تروّحه بطاقة نرجس . وجاءه رجل جندى يطلب منه شيئاً من الثمرة ، وهو يقول : أنا ناطور ما أمرنى صاحب البستان ببذل شىء منها ، فجعل الجندى يضربه ، وهو يقول : اضربْ على رأسٍ طالما عصى الله تعالى . توفى سنة ١٦١ هـ . »

وعلى هذا النحو يجمع الكتاب خوارق النسّاك والمتصوفة بجانب خوارق البنيان والآثار ، ومن حين إلى حين نلتقى بغرائب الأخبار لا فى الإنسان ، بل أيضا فى الطير والحيوان البرى والبحرى والزواحف ، وهم يكثرون من الحديث عن التنّين وهو ضرب من الحيات العظيمة ، ومن عجيب ما ذكره القزوينى عن حلَب :

« أنه ظهر بها سنة أربع وعشرين وستمائة تنين بغلظ منارة وطول مفرط ، ينساب على الأرض ، يبلع كل حيوان يجده ، ويُخْرج من فمه ناراً تحرق ما تلقاه من شجر أو نبات ، واجتاز على بيوت أحرقها ، والناس يهربون منه يميناً ويساراً ، حتى انساب قدر اثنى عشر فرسخاً ، فأغاث الله تعالى الخلق منه بسحابة نشأت وتدلت إليه ، فاحتملته ، وكان قد لَفّ ذنبه فى كلب ، فرفع الكلب وهو يعوى فى الهواء ، والسحاب يمشى به والناس ينظرون إليه إلى أن غاب عن الأعين . . »

وطبيعى أن تكون هذه القصة التى حكاها القزوينى عن بعض الناس هناك ملفقة ، فهى أدنى إلى الخرافة ، وبمثلها كانت تروج هذه الكتب

الجغرافية فى الناس ، إذ يجدون فيها مسلاة لهم . ودائماً نلتقى عند القزوينى بمثل هذا التخريف الطريف .

ولا بد أن نشير هنا إلى كثرة الكتب التى ألفت فى العصور الوسطى على هذا الطراز ، وربما كان أقربها إلى الواقع « معجم البلدان » لياقوت الحموى الذى ألفه سنة ٦٢٦ هـ/١٢٢٨ م ورتب البلدان فيه على حروف الهجاء ، ولذلك سماه معجماً ، وهو يعرض علينا فى كل بلدة أوصافها الجغرافية وأحوالها العمرانية ، وقد يعرض لشىء من تاريخها ، وربما أفاض فى ذلك . ويذكر من نبغوا فيها بمختلف العلوم والآداب . وقد تنقل فى كثير من البلاد وجمع من مشاهداته ومن الكتب السابقة له مادة وفيرة ، جعلت كتابه أغنى كتب البلدان معارف وأخباراً ، وكان ناقداً متثبتاً ، فلم يفتح فى كتابه باب الخرافة والأساطير على مصراعيه كما صنع القزوينى .

ووراء هذه الكتب التى وصفناها كتب جغرافية كثيرة تذهب مذهبها من مزج المعلومات الخاصة بوصف الأرض بمعلومات كثيرة تاريخية وعمرانية ، مع ذكر العجائب فى البنيان والحيوان والطير ، فى عالمى البر والبحر . ومن أشهرها « كتاب البلدان » لليعقوبى و « الأعلاق النفيسة » لابن رسته و « البلدان » لابن الفقيه و « تقويم البلدان » لأبى الفداء .

وأفردت كتب للعجائب التى ساقها الجغرافيون والمؤرخون ، ودارت فى الأوساط الشعبية ، ومن أشهرها « خريدة العجائب » لابن الوردى و « نُخْبة الدهر فى عجائب البر والبحر » للدمشقى و « مختصر العجائب » لابن وصيف شاه ، وجميعها تلبّى رغبة الشعب فى قراءة الخوارق والعجائب .